بين المعجزة والعلم

للأستاذ زكي نجيب محمود

أخي س :

. . . . لم أكن أتوقع من صروف الدهر مهما أسرفت في عبثها ، أن تُخرج منك ، وأنت القديس المتبتل في يفوعك ، زنديقاً يكفر بما كان يؤمن به قلبك ويدين !! حتى جاءتني هذه الرسالة منك ، ففضضتها وأجلت فيها البصر سريعاً ، فإذا بصفاتك تختفي وتتنكر ، وإذا بك تبدو لعين صديقك انساناً غريباً يشك بعد يقين ، وينكر بعد إيمان ! لقد مضيت في كتابك لي ترفض كل ما يزعمه الناس من المعجزات وخوارق الطبيعة ، وتلوح في كل سطر بالعلم وقوانين العلم ، وتعثر في كل سطر بالفلسفة ونتائج الفلسفة ؛ ثم ختمت الرسالة بهذه العبارة أخذتها من كتاب سبينوزا « في الدين والدولة » : « يظن الدهماء أن قوة الله وسلطانه لا يتجليان بوضوح إلا بالحوادث الخارقة التي تناقض الفكرة التي كونوها عن الطبيعة . . . إنهم يظنون أن الله يكون مُعَطَّلاً ما دامت الطبيعة تعمل في نظامها المعهود ، وعكس ذلك صحيح ، أي أن قوة الطبيعة والأسباب الطبيعية يبطل عملها ما دام الله فعّالاً ؛ وهم بذلك يتخيلون قوتين منفصلة إحداهما عن الأخرى : قوة الله وقوة الطبيعة ؛ والواقع أن الله وقوانين الطبيعة شيء واحد » . ولقد ساءلتني بعد ذلك قائلاً : « ما حاجتك إلى التمسك بالمعجزات وخوارق الطبيعة ما دام العلم يفسر لنا كل شيء بقانون ؟ ! »

وإني لأستطيع أن أقوض علمك هذا من أساسه بضربة واحدة حين أذكرك بما انتهى اليه هذا العلم نفسه ، من أن الطبيعة المادية لا تسير وفق قانون صارم كما يذهب بك الظن ، بل إنها قد تغير سلوكها بما لا يمكن التنبؤ به ، كالكائنات الحية سواء بسواء ؛ وإن هنالك بين أساطين العلم من يزعم أنه ليس في الطبيعة كلها ذرة واحدة تخلو من الحياة أو ما يشبه الحياة ، وكل الفرق بين حياتها وحياة الانسان هو في الدرجة لا في النوع ، فكما أني لا أستطيع أن أتنبأ بما أنت فاعله غداً ، كذلك لا يستطيع العلم أن يقطع جازماً بما ستؤول اليه هذه الذرة أو تلك ، لأنها يا سيدي تتمتع بشيء مما تتمتع به أنت من حرية وإرادة ، وليست مجرد آلة صماء في يد القانون ! ! ولكن يجب أن أسارع إلى القول بأنه وإن تكن الذرة الفردية على شيء من الحياة التي قد تغير في سلوكها ، فانها في مجموعها أقرب ما تكون إلى النظام الدقيق في سيرها ، كما أن الانسان الفرد حُرٌّ في تصرفه إلى حد بعيد ، ولكنه في المجموع يسير وفق أسس وقواعد لا تكاد تعرف الشذوذ

نعم أستطيع أن أقوض علمك هذا من أساسه بضربة واحدة حين أذكرك بهذه الحقيقة العلمية التي تعترف للطبيعة بامكان التغير في بعض جوانبها ، فذلك وحده كفيل بتعليل أي تبديل في نظام الكون المعهود ، ولكني سأفرض معك أن قوانين الطبيعة يستحيل عليها الخطأ ، وأن المادة لا تملك لنفسها تغييرا ولا تبديلاً عما رسمه لها قانونها الأعلى ، فمن ذا الذي زعم لك أن المعجزة كسر لقانون الطبيعة ، وإنه لذلك يجب اطراحها ونبذها ؟ نحن نسلم معك أن قانون الجاذبية صارم لا يقبل الشذوذ ، وأن التفاحة إذا انفصلت عن فرعها سقطت من فورها على الأرض بفعل قانون الجاذبية هذا ، ولكن هب يداً امتدت إلى التفاحة أثناء طريقها إلى الأرض فلقفتها فحالت بذلك بينها وبين الأرض ، أيكون ذلك كسراً للقانون ؟ كلا ! القانون لا يزال قوياً سليما ، غير أن إرادة بشرية حالت دون تطبيقه لا أكثر ولا أقل . . . أرأيت إذا تركت أقلامك وكتبك مبعثرة في أرض غرفتك ثم عدت بعد حين فوجدتها صعدت إلى ظهر المكتب صفوفاً منظمة ، أفتقول إن قانون الجاذبية قد انقلب رأساً على عقب لأن الكتب والأقلام قد صعدت إلى أعلى بدل أن تستقر على الأرض منجذبة بها ؟ أم أنت جازم في مثل هذه الحالة بأن شخصاً بشرياً قد تدخل في الأمر بارادته وحال بين قانون الجاذبية وبين تنفيذه حيناً ، فأمكن للكتب بذلك أن تفلت من يده ، ولكن القانون لا يزال قائماً لم يخدش ذلك من قوته وشموله ؟ ! لا أحسبك مرتاباً في صحة هذا القول ، فأنت موافق ولا شك أن الارادة البشرية قد تستطيع أن تتوسط بين القانون وبين تطبيقه فتعطله دون أن تبطله ، نعم إنك موافق على ذلك ،

ولكني لو حورت العبارة قليلاً سائراً بها نحو الأقوم والأصح فستغضب للعلم وكرامة العلم ؛ لو زعمت لك أن لله إرادة حرة كهذه التي للانسان ، يستطيع بها أن يعطل قانون الطبيعة حيناً قد يقصر أو يطول ولكنه يظل قانوناً معمولاً به لا يصيبه عطب ولا خسارة ، كان ذلك الزعم مني في رأيك جهلاً وحماقة ، يارعاك الله ! أفتستطيع أن تحدثني عما يبرر عندك أن يكون للانسان ما ليس لله ؟ ! !

معذرة ، ياصديقي ، فسأقص عليك حديثاً عن كلبي ، وللحديث صلة بموضوعنا ، فقد وضعت كتاباً بالأمس على مقعد إلى جانبي ، فجاء الكلب يتحسس ويتجسس ويشم الكتاب ، وأظنه قد حسبه قطعة من الجماد لا خير فيها ، فترك الكلبُ الكتاب وانصرف ؛ وإذا فرضنا أن التفاهم مع الكلب ممكن ، ثم جئت تقسم له أن في الكتاب ما ليس يدرك بالشم واللمس ، وأن فيه معنى إذا كان لا يدركه هو فليس عجزه دليلاً على عدم وجوده ، نفر وسخر وأكد لك أن حواسه مقياس للحقيقة لا يخطىء . . . وإني لأحسب الكون ياصديقي كتاباً مفتوحاً فيه من المعاني السامية ما عكن فهمه وإدراكه لذوي البصيرة السليمة . ولكني أؤكد لك أن هنالك طائفة من الناس ستمد أيديها وأنوفها إلى جوانب الطبيعة تتحسسها ، ثم تجزم في يقين لا يعرف الشك ولا التردد بأن هذه الطبيعة جماد في جماد يسيره هذا وهذا من القوانين في طريق مرسومة معلومة لن تشذ فيها خارقة ولا معجزة . . . وأعجب العجب أن تكون هذه الطريقة الكلية علماً ، وأن يكون كل ماعداها تخريفاً وجهلاً

نشدتك الله إلا حدثتني كيف جاز لك أن تقطع أن ليس في الكون من الحقائق ما تعجز عقولنا وحواسنا عن إدراكه ؟ ولم لا يكون في هذا الكون الفسيح من هو أكبر منا عقلاً وأحد ذكاء فيستطيع أن يقرأ في كتاب الكون ما لا نستطيعه ؟ ترى لو أتانا الله حاسة سادسة وسابعة وثامنة ، فماذا عسانا نعرف بتلك الحواس الزائدة ، أم تظل أبواباً مغلقة لأن العلم قد نفد ؟ !

تعال معي إلى الكون نحتكم إلى ظواهره لنرى هل استطاع العلم أن يعللها جميعا ، أم أن هناك ألوفاً وألوفاً يقف أمامها العلم مكتوف الأيدي ولا عكن فهمها إلا أن تكون « خوارق » فوق العلم وقوانينه . أم تُراك فاعلا كما يفعل ذوو النزعة المادية الضيقة ، فتطأ بقدمك كل الظواهر التي تستعصي على العلم وتنكر وجودها حتى لا ينثلم العلم ولا ينخدش ، أو تطلب الينا أن نصبر وأن ننتظر حتى تتم للعلم قوته وفتوته فيشمل الكون كله بالتفسير والتعليل ؟ وفي الحق أن هذا السلاح الذي يشهره الماديون — سلاح التسويف والوعد بأن العلم سيتمكن في المستقبل مما لم يتمكن منه اليوم — عكن استخدامه في كل حين ، فليس بيننا وبينهم موعد يبطل بمده التسويف ، ولكنها مماطلة متجددة لا تنقطع ولا تفرغ ؛ فاذا فرضنا أن رجلاً استطاع أن يحز رأسه — ويحمله فوق يديه سائراً به في الطريق ، ثم سألت الماديين رأيهم في هذا أجابوك : اصبر فان الزمن كفيل للعلم أن يبرهن على هذه الظواهر وأشباهها ، فليس ذلك على العلم بعزيز . . . ولكن هل يتفق وروح العلم أن نلجأ إلى دليل غير موجود ؟ أم أنه أحجى وأقرب إلى الصواب أن نعلل الظواهر بالأدلة التي بين أيدينا ، حتى ولو تعارض ذلك مع آرائنا ؟ فماذا عنع أن نفرض أن هنالك قوى غير مادية تفعل فعلها وتؤثر في مجرى الطبيعة فتنتج كل هذه الخوارق والمعجزات ؟

ولكن الماديين يركبون رؤوسهم ويحاولون أن — يعللوا بقوانين العلم كل شيء ، فان عجزت أمهلونا إلى المستقبل القريب أو البعيد . والعجب أن لهؤلاء الماديين « شطحات » في التفكير تدعو إلى التأمل ، فأنت إذا سألتهم مثلاً كيف نشأت هذه الخلائق ؟ أجابوك : تسلسلت نوعاً عن نوع وجنساً عن جنس ، وأصلها كلها خلية واحدة ... حسن ! وكيف نشأت هذه الخلية الواحدة ؟ إنها تولدت بطريقة تلقائية آلية من الجماد ! فانظر اليهم كيف تجيز لهم عقولهم صدق هذا النبأ مع أنه على فرض أنه صحيح فقد حدث في ماض بعيد سحيق ، ولم يشهده شاهد ولا سجله مسجل ، ولكنهم مع ذلك يقبلونه راضين مختارين ؛ — ثم إذا عرضنا عليهم خارقة من خوارق الطبيعة مما يقع على مرأى منا ومسمع ، أنكروها في حمق مع أنها حاضرة بين أيديهم وليست بالماضي البعيد ، وهي مشاهدة ومسجلة فكانت أجدر بالتسليم والقبول من تلك « الخارقة » البعيدة — ونسميها خارقة لأنه ليس من قوانين الطبيعة فيما نظن انبعاث الحياة من الجماد ! ولكن القوم يختارون من الآراء والعقائد ما يتفق مع مذهبهم ، كما يتخير النساء أزياءهن لكي تلائم ألوانهن وأجسامهن

هب يا صديقي جماعة قدار تحطمت سفينتهم على جزيرة مهجورة لا أثر للحياة فيها ، ولكنهم ألفوا على أرضها آثار أقدام ليست من آثارهم هم ، فبماذا يعللون هـذه الظاهرة إلا أن أناساً غيرهم كانوا بالجزيرة منذ حين ؟ أظن هذا منطقاً لا صعوبة فيـه ولا التواء : لكل أثر مؤثر ، فان رأينا أثراً ولم نجد بيننا مؤثره أيقنا أن هذا المؤثر لا بد أن يكون موجوداً في غير مكاننا . وها نحن أولاء ننظر فنرى أنفسنا فوق هذه الجزيرة المهجورة التي تسبح بنا في الفضاء ، ثم ننظر فاذا بآثار لا يحصيها العد تفرض علينا فرضاً أن أحداً غيرنا قد اتصل بهذه الجزيرة وهو يتصل بها في كل حين ليحدث هذه الآثار

ولست أدري ماذا يضيرك أن تعلل بالعلم ما يمكن العلم أن يعلله ، وأن ترجع إلى القوة التي فوق الطبيعة كلّ ما تصادف من خوارق ومعجزات ؟ يقول الماديون إن إدخال « الله » في مجرى الطبيعة عجز وقصور عن التعليل الصحيح ، ويزعمون أن الانسان الأول كان يفسر كل شيء بقوة الآلهة لقلة محصوله من العلم ، فكان إذا اكتسب شيئاً من العلم يعلل به ظاهرة ما ، أسقط هـذه الظاهرة من دائرة نفوذ الله وأدخلها تحت سيطرة العلم ؛ وهكذا أخذ العلم ينمو ويتسع كما أخذت العقيدة في تأثير الله على سير الطبيعة تضؤل وتضيق ، وهم يرجون أن يطرد نمو العلم حتى يشمل الكون جميعاً ويفسر « الظواهر » كلها بغير استثناء ؛ وهم بناء على ذلك يرفضون رفضاً قاطعاً أن يعللوا شيئاً إلا على أساس واحد : هو قانون الطبيعة ويلفظون من حظيرتهم كل من يحاول أن ينسب شيئاً إلى قوة أخرى غير قوة الطبيعة وقانونها ! وقديماً كان العالم أو إن شئت فقل الكاهن يفسر كل شيء بقوة الآلهة وحدها ، وينبذ كل من يحاول أن يفسر شيئاً على غير هذا الأساس ! فهل ترى فرقاً بين الكاهن القديم والعالم الحديث ؟ كلا ، فكلاهما متعصب محدود الفكر ، ضيق النظر ، ولعمري إن العالم المادي الحديث لم يزد على أن ارتدى رداء سلفه الكاهن مقلوباً ظهراً لبطن !

لعله أقرب لروح العلم الصحيح أن تتناول الأبحاث أحراراً من كل قيد ، فلا نفرض لأنفسنا أساساً معيناً للبحث لا نعدوه ، أعني أنه لا ينبغي أن نحتم على أنفسنا أن نفسر كل شيء بكذا أو بكذا ؛ وإلا كنا كعلماء الفلك الأقدمين الذين كانوا ينظرون في السماء ويبحثون في النجوم على شرط أن يكون بحثهم مقصوراً على ما هو معروف من النجوم ، فان ظهر كوكب أو نجم جديد أنكروه ورفضوه ! !

أردت يا أخي أن تكون حراً في البحث فكبلت نفسك بالأغلال والقيود ! فارفع عن بصرك هذه الغشاوة عسى أن يهديك الله سواء السبيل

زكي نجيب محمود

٢ ـ منازل الفضـــل

دار علي مبارك باشا

للأستاذ محمد محمود جلال

من الأسماء ما يخف على سمعك لمجرد تركيبه ووقع نغمه في الأذن ، ومنها ما يعجبك لمعنىً يشير اليه ؛ وقد يعجبك الاسم وقد خلا من هذين اعجاباً بشخصية قدّرت في التاريخ دورها ؛ وقد يكون من بين الأسماء ما ينفر منه السمع ، وهو مع ذلك حبيب إلى نفسك لذكرى تتصل به أو جيل أردفته بالعرفان

ويقص المتشيعون للعلاقة بين الاسم والمسمى من علماء اللغة أن أحدهم سأل اعرابياً عن معنى « أذغاغ » فقال الاعرابي وهو لا يعرف من الفارسية شيئاً : « أرى فيه يبساً وصلابة ، ولعله الحجر »

وليس للطفولة أن تسمو إلى شيء من ذلك البحث أو ذاك القياس ، وإنما يسبق فيها الاحساس المعرفة ، فما نظرت إلى شيء من ذلك يوم كان « شارع علي مبارك باشا بالحلمية » أحب الشوارع الى سنة ١٩٠٨ ، فكنت أخصه بروحاتي وغدواتي ، وأختص « اليافطة » أول سيري به بتجربة قدرتي على قراءة الخط والخط المشبك

سكنا الحلمية بعد أن هجرنا دارنا الأولى بدرب الجاميز حيث مأمورية الأوقاف الآن ، على أثر خلاف بيننا وبين ديوان الأوقاف على حيازة القطعة المجاورة لتوسيع الدار بطريق البدل ، ولا أجد اليوم تعليلا معقولاً لتفضيلي إلا بالصلة التي توجدها النشأة ، وقد نشأت في الزيف ، ومن أسرة فلاحة ، واسم علي ومبارك